

بسم الله الرحمن الرحيم

جُرْحُكَ يَا وَطَنِي يُؤَلِّمُنِي

بقلم: أحمد عكاش.

آه يا وطني، يا وطن الجراح، يا وطناً تألَّبت على صدره الطعنات، حتى أَلْفَهَا
وَأَلْفَتْهُ، وسال النَّجِيعُ القاني هملاً، آه يا جراحاً لا تُغادرُكَ، كلِّما حَسِبْنَا أَنَّكَ
بَرِئْتَ مِنْ جُرْحِ، وتوهَّمْنَا أَنَّكَ تماثلتَ للشِّفاءِ منه، فتحنا مآقينا على طعنةٍ
نجلاء، يُنسينا أَلْمُها ما كابدناه من أوجاعِ الدَّهورِ المنصرمةِ، فَمَاذَا دهانا يا
وطني وما دهاك؟ هل عَقَّدتَ مُعاهدةَ عشقٍ مع الآلامِ، فألَّتْ على نَفْسِها لا
تُغادرُكَ، وعَقَّدتَ لها أَيْماناً مُغلَّظَةً لا تدفعُها عنكَ، ولا تَضِلُّ طريقها إِلَيْكَ؟.

حِينَ فتحنا أَعْيُننا صغاراً، وملأنا ترائبنا بعبيرِ نسماتِكَ، وأظَلَّتْنا زُرْقَةُ سماءِكَ،
وأقلَّتْنا خُضْرَةُ أرضِكَ، فَعَلْنَا ما فعلتُهُ ملايينُ الأجيالِ الماضيةِ قبلنا ...
عشقناك كما عشقوك، وكما نذروا أرواحهم نذرنا أرواحنا في كلِّ حينٍ وفي
كلِّ صُفْعٍ لِفداءِ أصغرِ حَبَّةِ رَمَلٍ في صحرائِكَ، أو ذرَّةِ ترابٍ في سهولِكَ أو
أدقِّ حصباءٍ في جبالِكَ.

عشقناك يا وطني امتداداً جغرافياً يهزأ بالحدود المصطنعة، ويستخف بمن
اصطنعها، وتبسط أجنحته من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي، ومن
جبال طوروس إلى أقصى منابع النيل الموغلة عمقاً في القارة السمراء، يا إلهي
كم ساورتنا العزة ونحن نحتسي نشوة الانتماء العظيم لهذا الوطن العظيم.

وتسمو نفوسنا فوق نخوم واهية رُسمت على الورق، نحاول لاهتة أن تنأى
بالمشقي عن المغربي، وأن تحول بين يدي الشامي أن تمتد لمصافحة يد
العراقي، وأن تمنع وصول البرتقال اليافوي إلى مائدة المصري، وأن تُصادر
(المانجا) المصرية قبل تهدي طريقها إلى فم المغربي...

عشقنا يا وطني لك كان أرسخ قدماً من نخومهم الممسوخة، وأصلب عُوداً
من خرائطهم الملوّنة، خرائطهم هذه كثيرة الخطوط والتعاريج، عشقنا لك يا
وطني كالشمس .. أكثر ضياءً وأطول خلوداً، وأنصع سبيلاً، وأهدى عاقبةً.

عشقناك يا وطني حضارةً و رُقيّاً وعِلماً سطعت شمسُه في دياجي الجهل
فصاغتها سبغاً حضارياً وصناعياً بهر الأبصار، فإذا به (شارلمان) ملك ألمانية
يُنادي برجاله: (هلموا لتروا معي هذه الآلة العجيبة التي لا أصدق إلا أن
الجن هم الذين يُديرون أجزاءها، والتي أهداها لنا ملك العرب (هارون
الرشيدي) وقال لنا عنها: إنَّها ساعة لقياس الزمن).

عشقناك يا وطني فرساناً مؤمنين فاتحين، انبرى الشعْرُ بينَ أرجلهم إذ اتَّخذوا
صهوات جياذهم عُروشاً يتبوؤونها، وينشرون من فوقها في أصقاع المعمورة
شهادة الحقِّ والنور، شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله، فإذا بأغنى
امبراطورياتِ العالم حينها تُصيحُ السَّمعُ لصهيلِ أحصنتهم العربيَّةِ المسلمةِ
وهي تدكُّ معاقلَ الظلمِ والظلامِ في الصِّينِ شرقاً والأندلسِ غرباً، وقسطنطينيةَ
شمالاً، وأدغالِ إفريقيَّةِ جنوباً.

يا إلهي كم تُساوِرنا الآنَ النِّشوةُ ونحنُ نُطالعُ صفحاتِ التاريخِ يزوي لنا أبناءَ
تلكَ الفُتوحاتِ السَّواطعِ.

عشقناك يا وطني ثوراً وشهداء، رجالاً أشاوسَ اندفعوا إلى مشانقِ الاستعمارِ
يهتِفون: أهلاً بك يا أَرْجوحةَ الأبطالِ. ثم تخفقُ أرجلهم في الفضاءِ فوقَ
كرسيِّ الجلادِ تمنحُ أوطانهم وشعوبهم الحرِّيَّةَ والاستقلالَ.

آه يا وطني، أيُّ بقعةٍ فيك لم ينلها عشقنا، بل أيُّ هباءةٍ في ترابك أو فنن
في أشجارك، أو قطرةٍ في أنهارك وبحارك لم تحظَ منَّا ببيادرِ العشقِ والهوى؟.

عشقنا يا وطني (أوراس) جزائرنا الحبيبة، ينتفضُ مارداً أمامَ مدمراتِ الاستعمارِ
الفرنسيِّ الفواتك، ويُقسِمُ بالنَّازلاتِ الماحقاتِ في الجبالِ الشَّاهقاتِ
الشَّاهقاتِ، والدِّماءِ الزَّاكياتِ الطَّاهراتِ، أنَّ الجزائرَ ثارتْ فإمّا حياةٌ أو مماتْ،

وَأَنَّ الْجَزَائِرِيِّينَ الْأَبَاءَ عَقَدُوا الْعِزْمَ أَنْ تَحْيَا الْجَزَائِرُ، وَأَشْهَدُوا عَلَى ذَلِكَ الْعَالَمِ
كَلَّةً: فَاشْهَدُوا .. فَاشْهَدُوا، فَشَهِدَ الْأَشْقَاءُ الْعَرَبُ وَالْعَالَمُ الْحُرُّ كَلَّةً، وَقَالُوا:
آمِينَ ... آمِينَ .

عَشَقْنَاكَ يَا جَزَائِرْنَا الْحَبِيبَةَ، عَشَقْنَا فِيكَ (الْعَرَبِيُّ بْنُ مَهَيْدِي) يَسْلُخُ الْجِلَادَ
الْمُسْتَعْمَرُ جِلْدَةَ رَأْسِهِ لِيُبَوِّحَ بِسِرِّ الثَّوَارِ، فَلَمْ يَفْعَلْ، أَدَخَلَ الْجِلَادُ فِي حَلِقِهِ
سُفُوداً خَرَجَ مِنْ قَحْفِ رَأْسِهِ، وَفَاضَتْ رُوحُهُ إِلَى بَارئِهَا، وَلَمْ يَفْرَحْ جِلَادُوهُ
وَلَوْ بِكَلِمَةٍ يَتِيمَةٍ فَاهَ بِهَا.

عَشَقْنَا فِيكَ يَا جَزَائِرْنَا (يُوسُفَ زَيْرُوت) الَّذِي لَمْ تَجْرُؤْ فِي ذَلِكَ الْوَادِي كَتِيبَةً
مَنْ السَّفَاحِينَ الْمُدَجَّحِينَ بِالْحَقْدِ وَالِدَبَابَاتِ وَالطَّائِرَاتِ، أَنْ يَقْتَرِبُوا مِنْ مَعْقَلِهِ،
لَكِنَّهُمْ بَعْدَ سَاعَاتٍ طَوَالٍ حِينَ لَمْ يَرَوْا مِنْهُ مَقَاوِمَةً، تَقَدَّمُوا مِنْهُ بِجَذْرِ وَهَلَعِ
فَوَجَدُوهُ قَدْ أَسْلَمَ الرُّوحَ مِنْذُ عَهْدٍ، بَعْدَ أَنْ غَدَا جِسْمُهُ كَالْغُرْبَالِ مِنْ غِزَارَةِ
الرِّصَاصَاتِ الْأَثْمَةِ الَّتِي انْهَمَرَتْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَسْعُهُمْ إِلَّا أَنْ يُفْرِعُوا كُلَّ مَا فِي
جِعَاعِهِمْ مِنَ الرِّصَاصِ فِي ذَلِكَ الْجَسَدِ الْهَامِدِ.

عَشَقْنَا فِيكَ يَا جَزَائِرْنَا (الشَّهِيدَ الْحَيِّ)، وَآلَافَ آلَافِ الشُّهَدَاءِ الْأَبْرَارِ،
عَشَقْنَا (جَمِيلَةَ بُوْحِيرِد) وَالْأَيْدِي الْحَرَّةَ يَعْضُّهَا الْقَيْدُ، وَيُرْمَى بِهَا فِي غَيَابَاتِ
السُّجُونِ، تَنْهَشُ الزَّنَانَاتُ أَعْمَارَهُمُ الْفَتِيَّةَ، وَأَبْدَانَهُمُ الْغَضَّةَ، وَالْمُنَاضِلِينَ (عَبْدَ

القادر الجزائريّ) و .. و .. عشقناك تُعَلِّينَهَا للقاصي والدَّاني، للوامقِ والشَّانيِ
قويَّةً صريحةً مدويَّةً: (شعبُ الجزائرِ مسلمٌ، وإلى العروبةِ ينتسبُ).

مَنْ مِنَ العَرَبِ لم يعشِقِ الفِكرَ النِّيرَ، والنوايا المخلصةَ الصَّادقةَ في أشخاصٍ
كانُوا شموخَ هدايةٍ وأقمارَ علمٍ، وأساطينَ إبداعٍ، فَمَنْ في أُمَّتِنا لم يصلُهُ
إشعاعٌ مِنْ رائدِ التَّهْضَةِ الجَزائِرِيَّةِ المِفْكَرِ (عبد الحميد بن باديس) وَ(مالك بن
نبيّ) وَ(البشير الإبراهيميّ) وَ(الشيخ العربيّ التبسيّ)

وأَيُّ أديبٍ عَرَبِيٍّ لم تأخُذَهُ المتعةُ وَهُوَ يَتَعَمَّقُ بأشعارِ (مُفْدي زكريّا) وَ(محمَّد
العيدِ آل خليفة)، وَ(محمَّد الأَخْضَرِ السَّائِحِيّ) ...

وأَيُّ روائِيٍّ وَقِصَّاصٍ لم يَضَعُ يَدَهُ على صَدْرِهِ وينحني إِجْلالاً لِم (محمَّد ديب)
وَ(مولود فرعون) وَ(الطَّاهِرِ وَطَّارِ)⁽¹⁾....

دَلَّني يا أُخي على سَائِحٍ واحدٍ تَطَوَّفَ في الآفاقِ ولم يَعْقِدِ الدَّهْشُ لسانَهُ وَهُوَ
ينقلُ بصرَهُ فيما حولهُ في (وهران) السَّاحِرَةِ، وَحينَ يُلقِي عصا التَّرحالِ في
(تِلْمَسَانَ) لا يردُّدُ مَعَ القائلين: (كلُّ جَمالٍ على تِلْمَسَانَ وَقُفُّ؟) أَلَا ما

1- ملاحظة: لَقَدْ كَتَبْتُ عامَ (1983) دراسةً نقديةً مُطوَّلةً عَن قِصَّةِ (الشهداء يعودون هذا
الأسبوع) تَأليف: القاصِ الجَزائِرِيِّ (الطاهر وطار) ونشرتها صحيفةُ (العروبة) في مدينة حمص، في
صفحتها الأدبيةِ مُسَلَّسَةً في عدَّةِ أيَّام.

أروعك يا جزائرنا من شواطئ العاصمة إلى مُصْطافِ (الشَّريعة) إلى صحرائك
الذهبيَّة الشَّاسعة ...

والآن يا وطني.. ما الذي جدَّ؟ مالي -والعجبُ يعصفُ بي- أرى أشقاءنا
في وادي النَّيلِ يرمونك يا جزائرنا ب...غير الوردِ؟. تتعالى حناجرهم -
وأوشكُ أن أنكر سَمعي- بهُتافاتٍ نضبَ في شرايينها الودُّ؟.

عَهْدُنَا يَا وَطَنِي بِمَاءِ النَّيْلِ يَمَلُّ أَعْطَافَ شَارِبِيهِ حُبًّا وَأُلْفَةً وَإِثَارًا، فَمِنْ أَيِّ
مَشْرَبٍ غَرِيبٍ كَدِرٍ تَسْرَبَتْ هَذِهِ الْقَطْرَاتُ غَيْرِ الْمَأْلُوفَةِ؟. أبناءُ مصر.. هم
أبناءُ مصر، فَمَا بِمَقْدُورِي أَنَا، وَمَا بِمَقْدُورِ غَيْرِي أَنْ يَقُولَ فِي مِصْرَ وَأَبْنَاءِ
مِصْرَ؟.

ماذا بِمَقْدُورِي أَنْ أَقُولَ فِي الَّذِينَ الْأَهْرَامَاتُ وَمَنَارَةُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ مُعْجِزَاتَا
الْإِبْدَاعِ بَعْضُ مَا قَدَّمُوهُ لِلْبَشَرِيَّةِ، ماذا بِمَقْدُورِي أَنْ أَقُولَ فِيهِمْ وَالنَّيْلُ مَشْرَبُهُمْ،
و(يُوسُفُ الصِّدِّيقُ) و(مُوسَى وَهَارُونَ) عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ثَمَّةَ مَنْشُؤُهُمْ،
و(يَعْقُوبُ) عَلَيْهِ السَّلَامُ ضَيْفُهُمْ، و(هَاجِرُ) ابْنَتُهُمْ، و(مَارِيَّةُ الْقِبْطِيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ)
أُمَّنَا زَوْجَةُ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟.

هل حاولت يوماً يا سيدي أن تنظرَ إلى الشَّمسِ في رابعةِ النَّهارِ؟ إن
استطاعَ بَصْرُكَ أنْ يحيطَ بالشَّمسِ، فباستطاعتِكَ أنْ تحيطَ بمصرَ تعريفاً
وتقريباً؛ مصرُ يا سيدي كالشَّمسِ في وَضَحِ النَّهارِ،

عصيَّةٌ على أنْ تُحَدَّ، عصيَّةٌ على أنْ يُحيطَ بها نَعْتُ أو أنْ يَرَقَى إلى سماءِها
مُتَعَمِّقٌ ...

فَلنُصَرِّفُ إذنْ إلى شأنِ آخَرَ مِنْ شؤُونِها، فهي أُمنا نحنُ العربَ قبلَ أنْ تكونَ
أُمَّ الدُّنيا، فَهَلْ سمعتَ يا سيدي منْ قبلُ أمّا تَرْمِي أبناءَها بـ غيرِ الوردِ؟
هلْ يمكنُ أنْ يدورَ في خلدِكَ أنَّ أمّا عظيمةٌ يمكنُ أنْ تُمَطِّرَ أبناءَها بغيرِ...
ماءِ الوردِ؟!.

آه يا جزائرَ البطولاتِ والتضحياتِ، آه يا مصرَ التَّاريخِ والحضاراتِ،
صدَّقاني -يا مِصرُ ويا جَزائِرَ- أنِّي أجدُ نفسي الآنَ نهباً لِحَرْجِ كبيرٍ حينَ
أسألكما: كيفَ سمَّختُما لهذا البالونِ الأجوفِ، بأنْ يضربَ بوشائجِ الرَّحِمِ
بينكما عُرضَ حائطِ النَّزاعِ والتَّراشقِ بالكلماتِ!؟.

ليسَ بينكما ما بيننا -نحنُ العربَ- وبينَ أعدائنا، فلمْ تُقْتَلْ واحدةٌ منكما من الأخرى
مليونَ شهيدٍ، ولمْ يتصبَّ بينكما جدارٌ عزلي عنصريُّ، ولمْ تتركبْ واحدةٌ منكما بحقِّ
الأخرى ما ارتكبتَ في (صبرا) و(شاتيلا)، ولمْ تُحصِرْ إحدكما الأخرى سنواتٍ حتَّى

تموت جوعاً ومرضاً...، ولم تتزعج - والحمد لله - واحدةً منكما من الأخرى أرضها وزيتونها وبرتقالها وأمنها ومساجدها وكنائسها وبساتين أطفالها، والأمل من عيون صباياها...، لم يحدث شيء من هذا بينكما؛ فعلام نرى منكما الآن ما نرى؟ ونسمع منكما الآن ما نسمع؟ حاشا أن أسمح لِنفسي بأن تقول: لقد فعل بكما " بالون أجوف " ما لم يحلم بفعله صهاينة العالم كله.

فَوَاحِجِي لَوْ قَالَتْ أَجْيَالُ الْغَدِ عَنَّا - نَحْنُ جِيلَ الْيَوْمِ - : دَوْلَتَا الْعَرَبِ الْعُظْمَيَانِ (مِصْرُ وَالْجَزَائِرُ) أَثَارَ الْفِتْنَةِ حَدِيثًا بَيْنَهُمَا (بَالُونُ أَجْوَفُ)، تَمَامًا كَمَا أَثَارَ الْفِتْنَةَ قَدِيمًا بَيْنَ أَبْنَاءِ الْعَمِّ (تَغْلِبَ) وَ(ذُبْيَانَ) فَرَسَا الرَّهَانَ دَاحِسًا وَالْعَبْرَاءُ.

يا (مِصْرُ)! لَنْ أَقُولَ: أَلَيْسَ فِيكَ رَجُلٌ رَشِيدٌ؟ لِأَنَّ الرَّاشِدِينَ فِيكَ بِمِنَّةِ اللَّهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَوْا، هَا هُوَذَا صَوْتِي - وَأَنَا مُحِبُّ مُشْفِقٌ - يَعْطُو إِلَيْكَ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ، يُهَيِّبُ بِالْعَامِلِينَ فِي شَيْءٍ مَصَادِرِ الْإِعْلَامِ عِنْدَكَ أَنْ يَأْمُرُوا بِالِإِتْقَاءِ عَلَى وَشَائِعِ الْإِحَاءِ وَالْمَحَبَّةِ بَيْنَ الْأَشْقَاءِ الْعَرَبِ، أَهَيْبُ بِهِمْ أَنْ يُهَيَّلُوا عَلَى شَجَرَةِ الْوَفَاقِ مَاءَ النَّمَاءِ وَالْخَيْرِ، لَا .. سِوَاهُ، أَهَيْبُ بِهِمْ أَنْ يُصَيِّخُوا السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ ل (نِدَاءِ الْحَبِّ) الطَّيِّبِ الْمُنْبَعَثِ فَوَاحًا مِنْ تِلْكَ النُّوَايَا

الطَّيِّبَةِ العِطْرَةِ، والمُنَسَابِ عَذْباً من تلك الأَفْوَاهِ الطَّاهِرَةِ، والنُّفُوسِ العَيُورَةِ،
وَالقُلُوبِ الكَبِيرَةِ المَشْحُونَةِ بِالحَبِّ وَالإنْسَانِيَّةِ، فَنِدَاؤُهَا وَنَمِّ اللّهِ نِدَاءٌ رَشِيدٌ.

لَا يَسْتَفْرِزُّكُمْ الشَّيْطَانُ بِبَالَوْنِ أَجُوفَ، فَيَنْثُرُ فِي قُلُوبِكُمْ بَدُوراً ثَمَارُهَا وَاللّهِ
لَيْسَتْ إِلَّا عَاراً عَلَيْنَا نَحْنُ العَرَبُ، وَفَرِحَةٌ وَشِمَاتَةٌ لِأَعْدَائِنَا الحَقِيقِيِّينَ، وَلَا
تَسْمَحُوا لِفرِحَةِ فَرِيقِ رِيَاضِي عَرَبِيٍّ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى جُرْحٍ جَدِيدٍ يُذْمِي قَلْبَ
أُمَّتِنَا.. يَكْفِينَا جِرَاحاً.

كَمْ كَانَ جَلِيلاً وَسَامِياً يَدْعُو إِلَى العِزَّازِ لَوْ كُنْتُ جَلَسْتُ جِلْسَتِي هَذِهِ
لَأَكْتُبَ فِي شَأْنِ مُعَايِرٍ لِمَا كُتِبَتْهُ، كَانَ جَدِيراً بِي أَنْ أَكْتُبَ مَهْتِئاً بِنَصْرَةِ
الأَقْصَى الَّذِي تَتَرَبَّصُ بِهِ الصَّهْيُونِيَّةُ الدَّوَائِرَ، كَانَ جَدِيراً بِي أَنْ أُهْنِيَّ بِنَجْدَةِ
المَرَابِطِينَ فِي (عَزَّة) الصَّامِدَةِ المَجَاهِدَةِ، كَانَ جَدِيراً بِي أَنْ أُشِيدَ بِإِفْتِتَاحِ مَصْنَعِ
لِإِنْتِاجِ الطَّائِرَاتِ أَوْ الدَّبَابَاتِ أَوْ السَّيَّارَاتِ أَوْ البُورَاجِ ...، كَانَ جَدِيراً بِي أَنْ
أَتَعَنَّيَ بِأَنْضِوَائِي مَعَ العَرَبِ قَاطِبَةً تَحْتَ عِلْمِ عَرَبِيٍّ وَاحِدٍ، وَنَشِيدِ وَطَنِي عَرَبِيٍّ
وَاحِدٍ، فِي وَطَنِ عَرَبِيٍّ وَاحِدٍ.

أَهْ يَا وَطَنِي! نَمَّةٌ أَلْفُ أَلْفِ مَفْخَرَةٍ يُمَكِّنُ أَنْ أَجْلِسَ لِأَهْنَيْتِكَ بِهَا، لَكِنِّي -مَعَ
الأَلْمِ وَالخَيْبَةِ- أَجْلِسُ وَأَكْتُبُ لَعَلِّي أَنْتَرَعُ مِنْ نَفْسِ شَقِيقِي الجَلِيلِينَ أَشْوَكَاً

تَسَبَّبَتْ بِهَا مُبَارَاةٌ بِبَالُونِ أَجُوفٍ مِنَ اللَّدَائِنِ؟! . أَلَيْسَ هَذَا بَرِّكُمْ مِمَّا تَتَفَطَّرُ لَهُ
قُلُوبُ الْغِيَارَى عَلَى هَذَا الْوَطَنِ وَهَذِهِ الْأُمَّةِ؟! .

وأخيراً: (عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)، لَعَلَّ مَا حَدَّثَ يُعَلِّمُنَا أَنَّنا
نحنُ العربَ نُولي صغائرَ الأمورِ اهتماماً عظيماً نَفْتَقِدُهُ أمامَ جليلِها، وَأَنَّ فينا
عُيوباً مُشِينَةً يُحْتَمُّ عَلَيْنَا عَصْرُنَا وَوَأَقْعُنَا وَعِرَاقَةُ مَاضِينَا، أَنَّ نُعْمِلَ فِيهَا مِبْضَعَ
الاستئصالِ والمعالجةِ، لَعَلَّنَا نَسْتَوِي يوماً أَصْحَاءَ تَعَايِينَا مِنْ مُوبِقَاتٍ تُحْدِقُ بِنَا
وَتَقْتِكُ بِعَقُولِنَا وَأَفْئِدَتِنَا.

ختاماً أسألُ المولى أَنْ يَكُونَ غَدُنَا خَيْراً مِنْ يَوْمِنَا، وَأَنْ يَكُونَ مَاضِينَا حَافِزاً لَنَا لِأَنَّ
نَعُودَ كَمَا كُنَّا شَمُوسَ هِدَايَةٍ وَحَضَارَةٍ وَرُقْيٍ، وَخَيْرَ أُمَّةٍ أَخْرَجَتْ لِلنَّاسِ، نَأْمُرُ
بِالمَعْرُوفِ وَنَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ، وَالسَّلَامِ عَلَيْكُمْ.

أحمد عكاش - سورية - حمص .